

الجاحظ والمرأة

بقلم : شارل پلا (Ch. Pellat)

إن ألقينا نظرة إجمالية على الأدب العربي بأسره شاهدنا أن المرأة لم تزل تحتل فيه محلاً رحباً واسعاً منذ العهد الذي فيه كان الشاعر الجاهلي يلّمح الى صاحبه في نسيب قصيدته ويبيكي على الأطلال بعد طعنها عن ربع رهطها ؛ ثم شبّب عمر بن ابي ربيعة بالغواني والفواجر وجعل الغزل فناً مستقلاً عن فنون الشعر ؛ فحذا حذوه بعض المتقدّمين والمتأخّرين من الشعراء الأمويين والعبّاسيين وثابر أكثرهم على البكاء على الدمن إن لم يلجؤوا الى المجون والسخف ؛ ولقد اكتفى جميعهم في أغلب الأحوال بوصف خلق عشيقتهم وصفاً مقولباً مصطنعاً ولم يجاوزوه الى وصف خلقها ؛ ثمّ جمع الرواة أخبار جميل وبشينة وقيس وليلى وكثير وعزّة وغيرهم من المتعاشقين فروّوا من الأشعار والأخبار ما يكون قصصاً غرامية دون أن يطيلوا الكلام في نفسيّة النساء وما يشعرون به في صميم قلوبهنّ من العواطف والمشاعر ؛ وصارت مصارع العشاق - أي العاشقين دون العاشقات - موضوع ضرب من ضروب الأدب لا يخلو من أهميّة بالنسبة الى قضية النساء غير أن أبطاله معروفون مشهورون ومعشوقاتهم معروفات مسمّيات فلا يمكن أن يُستقرأ من أخبارهنّ معطيات عامّة ونتائج شاملة فيما يخصّ النساء على وجه الإجمال .

كذلك في المجموعات التي لم يتورّع بعض الفقهاء مثل ابن قيم الجوزية من تأليفها فيما يسمونه « أخبار النساء » ؛ فلا غرو أن مؤلفاتهم مشتملة على نواذر وحكايات تدلّ في الغالب على أن الجنس اللطيف شيء جميل يسبّب الحبّ والعشق ويأتي باللذة وربما يحدث في قلوب الجنس الخشن أضراراً جسيمة لأنه مجبول على الكيد والمكر ، مطبوع على الخيانة والغدر ، فلا يستحقّ أن يعتنى بتغيير حالته الشخصية وترقية منزلته الاجتماعية .

أما المؤلفات التي فيها يصف اصحابها قانون الجمال ويوردون شروحا لغوية تسببها كثرة الألفاظ العربية الدالة على أعضاء الجسد النسوي ففيها من المعلومات العامة ما يساعد على الإلمام بهذا القانون المتغير ويتطوره على مرّ الزمان ؛ فيدنون من هذا الضرب من المؤلفات ضرب آخر يتناول الأمور الجنسية بشكل قد تقشعرّ له جلود القراء - ومن غريب الاتفاق أن هذا النوع من أنواع الأدب تخصّص فيه بعض الأدباء التونسيين ؛ والحقّ أن مؤلفات الجاحظ لا تخلو من تفاصيل شنيعة ولا سيّما « مفاخرة الجوّاري والغلمان » حيث يذكر في تصدير الكتاب بعض الألفاظ الفاحشة وتقزّز من يظهر النسك والتقشّف وانقباضه إذا سمعها ، ثم يقول : « وإنما وُضعت هذه الألفاظ ليستعملها أهل اللغة ، ولو كان الرأي ألاّ يُلفظ بها ما كان لأوّل كونها معنى ، ولكان في التحريم والصون لِلُّغة العرب أن تُرفع هذه الأسماء والألفاظ منها ؛ وقد أصاب كلّ الصواب الذي قال : لكلّ مقام مقال » (1) ؛ وهىبة المقام الذي نحن فيه سأمتنع عن الإسهاب في هذه الأمور وإنما أقصر على التلميح إليها .

ومع ذلك فرّبما يشير أصحاب الكتب المارّ ذكرها إلى أن للنساء خلالاً محمودة لكي لا يتوهّم القارئ أنهن ذوات أخلاق سيّئة محضاً لا يتخلّلها

(1) انظر الحيوان ، 3 : 43 .

محاسن موصوفة ؛ وفي هذا الصدد فلا ننس كتب التراجم وأكثرها شأنًا تراجم الصحابة . فيوجد فيها جزء خاصّ بالنساء اللواتي صحبن الرسول أو أدركنه وأسلمن ؛ وكذلك تراجم النساك والأولياء ففيها أيضًا ذكر للناسكات والصالحات ؛ وسأخصّ بالذكر هنا ممن سمّاهنّ الجاحظ في « البيان والتبيين » (2) رابعة العدوية ولبلى الناعطية الغالية التي (3) « رُقعت قميصها حتى صار القميص الرّقاع وذهب القميص الأول ورفت كساءها حتى صارت لا تلبس إلا الرّفو وذهب جميع الكساء » ؛ ولا تخلو أيضًا تواريخ المدن والبلدان من تراجم المسلمات اللواتي اشتهرن في ميدانٍ من الميادين ؛ ويعلم جميع الناس أن الأديب التونسي الذي سوف نحتفل بالذكرى المئوية لميلاده - العلامة حسن حسني عبد الوهاب - أفرد لنساء بلاده كتابًا رائعًا وسمه بـ « شهيرات التونسيات » .

فلا شكّ إذن أن كثيرا من النساء قمن في معظم العصور والأقطار الإسلامية بدور اجتماعي وسياسي وأدبي وفني مرموق ممتاز ، منهن أزواج الخلفاء والأشراف ومنهنّ الشواعر والمغنيات حتىّ خصّص لهنّ الأدباء كتب تراجم جمعوا فيها أخبارهنّ وأشعارهنّ ومآثرهنّ وغير ذلك مما يتعلّق بأحوالهنّ ؛ ولعلّ أصدق مرآة لمنزلة المرأة من المجتمع الإسلامي « كتاب الأغاني » غير أن النساء اللاتيات يرد ذكرهنّ في المؤلّفات الموما إليها معلومات شهيرات فلا يجوز أن يُعمّم ما تحتوي عليه من تفاصيل شخصيّة ويطلق على الجنس اللطيف بأجمعه . وعساكم تفكّرون الآن في الكتب التي يتعرّض فيها أصحابها لمسألة الحبّ فيصفون نشوءه وأطواره وموته ؛ ولا يخفى على أحد أن أحسن مثال لذلك النوع من المؤلّفات « طوق الحمامة » . ثم لم يترك الفلاسفة أن يحلّلوا العشق ،

(2) البيان والتبيين ، 1 : 364 - 365 .

(3) كتاب البخلاء ، ط . الحاجري ، ص 31 .

ولعلكم تتذكرون الندوة التي أقامها يحيى بن خالد البرمكي للبحث عن هذه الظاهرة العجيبة فدعا إليها لفيفاً من الفقهاء والمفكرين والمتكلمين من أهل السنة والشيعية والاعتزال والإرجاء والذمة ، وقد احتفظ المسعودي (4) بما دار فيها من المذاكرة والمناقشة ؛ فيتضح مما ورد في « المروج » من الأقوال في هذا المعنى أن المشاركين في الندوة عرفوا العشق دون أن يفرقوا بين الرجال والنساء ؛ وعلى كل حال يمكننا أن نستنتج من المؤلفات الخاصة بالعشق أن أصحابها ، وهم رجال ، لم يحاولوا أن يبينوا خاصيات النساء في أمر من الأمور ، وإنما يبدو منها بصفة عامة أن الرجال عاشقون والنساء معشوقات غير عاشقات ، أو بعبارة أخرى يستخرج من كل ما مرّ أن الرجال محافظون يرضون بمنزلة المرأة المتخلفة ولا يهتمهم تغييرها وتطويرها .

فيكاد يُجمع مؤرخو الأدب العربي الحديث على أن رائد الحركة الرامية إلى تحرير المرأة من قيودها التقليدية هو الكاتب المصري قاسم أمين مع أن شارل ثيال (5) قد اكتشف في « تخلص الإبريز في تلخيص باريز » ما يجعل رفاعة الطهطاوي على رأس الرواد في هذا الباب ؛ ومهما كان من أمر لقد اتسعت الحركة فأفرد الكتاب رسائل وقصصاً على القضية النسائية وأظهروا ما تواجهه المرأة المسلمة من المصاعب وأكثروا من ذكر ما تستحقه من حرية واستقلال وألحوا خاصة على مسألة الحجاب والسفور وغير ذلك مما يعرقل مواهبها وانشرح صدرها .

ومن العجيب أن كاتبة فرنسية كانت تنصر دعوة النساء (6) زعمت منذ أكثر من نصف قرن أن أول ناصر من أنصارها في الإسلام هو واضح « الف

(4) مروج الذهب ، 2565 وما يليها ؛ راجع أيضاً كتاب عطف الألف المؤلف على اللام المعطوف للدليمي ، القاهرة 1962 ، 107 وما يليها .

(5) في مجلة الغرب والشرق ، عدد 87 (1980) ، ص 35 - 48 .

(6) Mme Lahy - Hollebecque : Le féminisme de Schéhérazade , Paris 1927 .

ليلة وليلة « لأن شهرزاد عاجلت شهریار فأبرأته من دائه المدمي ، وإنما فاتها أن نواة « ألف ليلة وليلة » هندية الأصل وأن اسم شهرزاد مأخوذ من الميثولوجيا الايرانية ، فلا يمت إلى الإسلام بسبب ، وفاتها أيضاً أن القصص الذين أضافوا إلى تلك النواة حكايات جديدة لم يُظهروا نحو المرأة عواطف مغايرة لما كان المعتاد في الحضارة الإسلامية بل بالغوا أحياناً مبالغة شنيعة لست بحاجة إلى إطالة الكلام في سوء تأثيرها .

فبالعكس يحق لنا أن ندعي أن أول كتاب اعتنى بالنساء واكثر بكرامتهن وسعادتتهن هو القرآن نفسه ، إلا أن الكتب المنزلة كالدساتير الحديثة تمثل مثلاً أعلى قلماً يبلغه الإنسان العادي ، مع أن بعض الآيات تبرر موقف الرجال من النساء ، منها (7) : ﴿ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْخَرْثِ ﴾ ، فوضع القرآن أشياء مختلفة من أمور الدنيا والنساء والبنين على صعيد واحد ؛ وإن ذكرت هذه الآية فلأن الملاحظ نفسه فسرها فقال (8) « إن الله قدّم ذكر [النساء . . .] على قدر تقدّمهن في قلوبهم » ، فاستدل بها على تقدّم المرأة في قلب الرجل وسوف نرى أنه التمس دلائل أخرى لا على منزلتها من فؤاده فحسب بل على تفوّقها عليه في شتى الأحوال .

وكما أنني زعمت مراراً أن أبا عثمان كان من الأوائل أي من الرواد لأنه أوّل من جمع بشكل منتظم عناصر الثقافة العربية الأصيلة ونفخ الروح الموسوعية في أجسام الأدباء وحاول أن يوسّع مدى المعارف بالعيان والاختبار ، وبالمشاهدة والاعتبار ، وهو أوّل من رفع الأدب التقليديّ إلى مستوى الإبداع والتفكير الفلسفي وأدخل وجهاً من وجوه الفنّ في علم التاريخ والجغرافية ، إلى آخر ما

(7) آل عمران ، 3 : 14 .

(8) رسائل السندوبي ، 261 ؛ رسائل هارون ، 3 : 142 .

له من الفضائل والمآثر ، فكذلك يجدر بي أن أدعيَ له الأسبقية في الدفاع عن المرأة لأنه أوّل من اهتمّ بحاجاتها ولذاتها ومؤهلاتها ونفسيّتها ، ووضعها أو كاد يضعها والرجل في مرتبة واحدة ، وإن اتّخذ منها في ظاهر الأمر موقفين متفاوتين . حسب مقتضيات الظروف وضرورات التأليف .

فإنّه لراوٍ على حدّ قوله في وصف نفسه ، وإنّما هو من جهة أخرى كاتب مُبدع مبتكر طريف ، وذلك هو السبب الذي من أجله ترك لنا آثاراً يختلف مضمونها وطريقتها اختلافاً ملموساً ؛ فلنبداً بالصنف الأوّل من مصنّفاته ولتنصّفح مجموعاته قبل أن نتصدّى لرسائله التي حرّرها عفويّاً دون أن يعتمد على الرواية ويستند إلى النقل .

فتوجب عليه طبيعة هذا الضرب من المؤلّفات رواية أقوال من تقدّمه . من غير أن يضطرّ دائماً إلى التعليق على معانيها وابداء رأيه في قيمتها ، وخاصّةً إذا روى الأحاديث النبوية والأقوال المأثورة ؛ فنراه يروي مثلاً أن الرسول قال (9) : « ما تركتُ بعدي فتنةً أضرتُّ على الرجال من النساء » ويشير في موطن آخر (10) إلى الحديث المشهور : « قمتُ على باب الجنة فكان عامّة من دخلها المساكين . . . وقمتُ على باب النار فإذا عامّة من دخلها النساء » ثم سئل النبيّ عن سبب ذلك فقال : « يكفّرُن العشير ويكفّرُن الإحسان ، ولو أحسنت إلى إحداهنّ الدهرَ ثمّ رأيتُ منك شيئاً قالت : ما رأيتُ منك خيراً قط ! » ؛ ولقد أورد الجاحظ خطبة الوداع (11) التي تتعلّق بعضُ جملها بحقوق الرجال على النساء إن سِرْنَ سيرة سيّئة وبحقوقهنّ عليهم من الرزق والكسوة ، فلم يُبدِ رأيه في هذه الخطبة الخطيرة كما أنّه لم يعلّق على قول عمر

(9) رسائل هارون ، 2 : 102 .

(10) البخل ، ص 141 .

(11) البيان والتبيين ، 2 : 32 .

ابن الخطاب (12) : « أكثروا لمن من قول « لا » فإن قول « نعم » يضرهم على المسألة » ، ولا على قول بعض الحكماء (13) : « لا تستشيروا معلماً ولا راعي غنم ولا كثير القعود مع النساء » ، ولا على قول أشد مما سبق وأعنف (14) : « لا تدع أم صبيك تضربه فإنه أعقل منها وإن كانت أسن منه » ؛ فيبدو أن أبا عثمان ربما يعبر عن استنكاره بالسكوت ، فإذا استحسناً قولاً شرحه ولو بإيجاز ؛ فروى مثلاً خبر أم تأبط شراً وأنها من عقلاء نساء العرب وأضاف قائلاً (15) : « إذا كان (كذا) نساء العرب في الجملة أعقل من رجال العجم فما ظنك بالمرأة منهم إذا كانت مقدمة فيهم ! » .

فلو اكتفينا بالاعتماد على الروايات السابقة لتبين موقف أبي عثمان من قضية المرأة اعتبرناه لا محالة مقلداً لا يختلف عمن سواه ؛ ولكنه وضع كتاباً وسمه بـ « فصل ما بين الرجال والنساء وفرق ما بين الذكور والإناث » وبين فيه « في أي موضع يغلب ويفضل وفي أي موضع يكن المغلوبات والمفضولات ونصيب أيهما في الولد أوفر ، وفي أي موضع يكون حقهن أوجب وأي عمل هو بهن أليق ، وأي صناعة هن فيها أبلغ » .

هكذا عرّف الجاحظ كتابه هذا ولخصه في تصدير « الحيوان » ، ومن سوء الحظ أكل عليه الدهر وشرب فلم يبق منه إلا فقرات يسيرة في رسالة عنوانها « النساء » أو « العشق والنساء » قد نشرت على هامش « الكامل » وفي طبعات الساسي والسندوبي وهارون ؛ ومما زاد الأمر صعوبة وتعقداً أن ابن النديم قال في « الفهرست » (16) إن الجاحظ « أضاف إلى كتاب الحيوان كتاباً

(12) الكتاب المذكور ، 2 : 190 ، 3 : 155 .

(13) الكتاب المذكور ، 1 : 248 .

(14) الوطن السابق .

(15) الحيوان ، 1 : 286 .

(16) في الفصل الذي نشره آبري . 38 .

آخر سَمَّاه كتاب النساء وهو الفرق فيما بين الذكر والأنثى « ؛ فيغلب على الظن أنه كان ينوي إنشاء هذا الكتاب عندما كتب مقدّمة « الحيوان » ولم يكن حينذاك قد حقّق مشروعه ، ثمّ حال المرض بينه وبين إنجاز وعده فلم يتسنّ له أن يقوم بعمل يُرضيه تمام الإرضاء إذ قال في الرسالة المذكورة (17) «إنّه كان يريد أن «يُخرج كتاباً تامّاً . . . حتى يحصل ما لكلّ جنسٍ من الخصال المحمودة والمذمومة» حتى يتبين للقارئ «نقصان المفضل عن رجحان الفاضل» ولكن «منع من ذلك فرط الكثرة وإفراط العلة وضعف المنّة وانحلال القوة» ، «فاجتنب ان يقصد من جميع ذلك الى فرق ما بين الرجل والمرأة» واقتصر «منه على ما لا يبلغ بالمستمع إلى السامة» .

فيتّضح ممّا سبق أنّه لا يمكننا الآن أن نلّم بأراء الجاحظ إلاما ؛ فيظنّنا الحال إلى الاكتفاء بما لدينا من النصوص ، والاستدلال بظاهر الأمر على باطنه ؛ فأجمع فيما يلي ما تيسّر لي من أقواله في هذا الباب وأدّعه يتكلّم لأنّ لفظه واضح ومعناه بين يستغني عن شرح وايضاح .

كان من الطبيعي أن يتعرّض أولاً لمنزلة المرأة من قلب الرجل ؛ فزيادة على ما رويته من تفسيره لآية قرآنية ، قال (18) : «وعامة اكتساب الرجال وانفاقهم وهمهم وتصنعهم وتحسينهم لما يملكون إنّما هو مصروف إلى النساء والأسباب المتعلقة بالنساء ؛ ولو لم يكن إلّا التمتّص [أي نتف الشعر] والتطيّب والتطوُس [أي التزيّن] والتخضّب والذي يُعدّها [كذا] من الطيب والصنغ والحلي والكساء والفرش والآنية لكان في ذلك ما كفى ؛ ولو لم يكن له إلّا الاهتمام بحفظها وجراستها وخوف العار من جنائتها والجناية عليها لكان في ذلك المؤونة العظيمة والمشقة الشديدة» .

(17) رسائل السندوبي ، 275 : الجملة غير موجودة في رسائل هارون .

(18) الحيوان ، 1 : 110 - 111 .

فلم يكتفِ بذلك بل توخَّى غاية أبعد وطلب دلائل أخرى فرأى (19) أن المرأة « أرفع حالاً من الرجال في أمور منها أنها التي تُخطب وتُراد وتُعشق وتُطلب وهي التي تَفدَّى وتُحمى ؛ قال عنبسة بن سعيد للحجاج بن يوسف : أَيْفَدِّي الأمير أهله ؟ - قال : والله إن تعدوني إلا شيطاناً ! والله لربما رأيتني أقبل رجل إحداهن ! » ؛ ومما يدل على علو مرتبتها في قلب الرجل أن « الرجل يُستحلف بالله الذي لا شيء أعظم منه وبالمشي إلى بيت الله وبصدقة ماله وعق رقيقه فيسهل ذلك عليه ولا يأنف منه ؛ فإن استُحلف بطلاق امرأته تربد وجهه وطار الغضب في دماغه وتمنع وعصى وغضب وأبى ، وإن كان المُحلف سلطاناً مهيباً ولم يكن يحبها ولا يستكثر منها وكانت نفسها قبيحة المنظر دقيقة الحسب خفيفة الصداق قليلة النشب ؛ ليس ذلك إلا لما قد عظم الله من شأن الزوجات في صدر الأزواج .

ومما يدل أيضاً على فضل النساء أن الله صانها فجعل (20) « في جميع الأحكام شاهدين ، منها الإشراك بالله وقتل النفس التي حرم الله [قتلها] ، وجعل الشهادة على المرأة إذا رُميت بالزنا أربعة مجتمعين غير مفترقين في موضع يشهدون أنهم رأوا مثل الميل في المكحلة وهذا شيء عسير » ؛ غير أن أقوى الحجج (21) لتقوى المرأة « أن الله تعالى خلق من المرأة ولدًا من غير ذكر ولم يخلق من الرجل ولدًا من غير أنثى ، فخص بالآية العجيبة والبرهان المنير المرأة دون الرجل لما (22) خلق المسيح في بطن مريم من غير ذكر » .

(19) رسائل السندوبي ، 269 ؛ رسائل هارون ، 3 : 146 .

(20) رسائل هارون ، 2 : 97 .

(21) رسائل السندوبي ، 271 ؛ رسائل هارون ، 3 : 149 .

(22) رسائل هارون : كما ، وهم .

هذا ، ولما بحث الجاحظ عن اسلحة الحيوان لاحظ أن سلاح المرأة (23) « الصُراخ والولولة التماساً للرحمة واستجلاًباً للغياث من مُحامتها وكُفاتها » ولكنه يعلم أن أنفذ سلاحها لاصطياد الرجال حسنُها وجمالُها ، فلذلك لا يتورّع من وصف قانون الجمال المتغيّر وتعريف أذواق معاصريه في هذا المعنى فيقول (24) : « رأيت أكثر الناس من البُصراء بجواهر النساء الذين هم جَهابذة هذا الأمر يقدّمون المجدولة ، والمجدولة من النساء تكون في منزلة بين السمينية والمشوقة ولا بدّ من جودة القدّ ومن الخُرط واعتدال المنكيين واستواء الظهر ، ولا بدّ من أن تكون كاسية العظام بين الممتلئة والقضيصة ؛ وأنما يريدون بقولهم مجدولة جودة القصب وقلة الاسترخاء وأن تكون سليمة من الزوائد والفضول ، ولذلك قالوا خُمصانة وسيفانة وكأنّها جان وكأنّها جدل عِنان وكأنّها قضيب خيزُران ، والتشّنيّ في مشيتها أحسن ما فيها ولا يمكن ذلك البُسخمة والسمينة وذات الفضول والزوائد ، على أن النُحافة في المجدولة أعمّ وهي بهذا المعنى أعرف ؛ ولم أر المجدولة تحبّب إلى أصحاب السمان والضخام وإلى أصحاب المشوقات والقضاف كما تحبّب هذه الأصناف إلى أصحاب المجدولات (25) ؛ وقد وصفوا المجدولة بالكلام المنثور فقالوا : « أعلاها قضيب وأسفلها كتيب » .

وكرّر الجاحظ وصف الجمال في « مفاخرة الجوّاري والغلمان » (26) وخاصة في كتاب « القيان » (27) وحاول أيضاً في هذه التحيفة اليتيمة أن

(23) الحيوان ، 6 : 279 .

(24) رسائل السندوبي ، 284 ؛ رسائل هارون ، 3 : 158 - 159 .

(25) رسائل هارون ، ص 109 : تحبب على السمان الضخام وعلى المشوقات والقضاف كما يجب هذه الاصناف على المجدولات .

(26) رسائل هارون ، 2 : 121 .

(27) المجموعة السابقة ، 2 : 162 .

يحدّد العشق (28) الذي كان اهتمام المفكرين مصروفًا إليه منذ أمد طويل حتى أقام يحيى بن خالد البرمكي الندوة التي أشرت إليها آنفا (29) ؛ فلم يحضرها الجاحظ ولكنه توسّع في الموضوع فقال (30) : « هو داء يصيب الروح ويشتمل على الجسم بالمجاورة كما ينال الروح الضعف في البطش والوهن في المرء ينهكه ؛ وداء العشق وعمومه في جميع البدن بحسب منزلة القلب من أعضاء الجسم ، وصعوبة دوائه تأتي من قبل اختلاف علله وأنه يتركّب من وجوه شتى ، كالحُمى التي تعرض مركبة من البرد والبلغم [. . .] فالعشق يتركّب من الحب والهوى والمشاكله والإلف ، وله ابتداء في المساعدة ووقوف على غاية وهبوط في التوليد إلى غاية الانحلال . »

فلأمر ما تناول أبو عثمان موضوع العشق في كتاب « القيان » ؛ فذلك أن القينة أقدر على أحداثه من المهيرة ؛ وبما أنني اقتبست من هذا الكتاب الفقرة السابقة رأيت من اللائق المناسب أن أنقل منه أيضًا وصف القينة ؛ فلقد اتفق لي أن لاحظت أن الجاحظ لم يتسنّ له أن يستخرج من نوادر البخلاء شخصا نمطيًا نموذجيًا تبلور فيه عناصر البخل وخصال الأشحاء وألححت على فرق ما بينه وبين بديع الزمان إذ اخترع صاحب « المقامات » شخصًا وهميًا يمثل كافة الخصائص التي أراد تشخيصها ؛ فيجب عليّ أن أصحح هذا الحكم لأن أبا عثمان استطاع هو أيضًا أن يجمع في شخص واحد خلال القيان بأسرها وإن لم يختز للقينة التي يصفها اسمًا من الأسماء ؛ فقال (31) : « إن القينة لا تكاد تخلّص في عشقها ولا تناصح في ودّها لأنها مكتسبة ومجبولة على نصب الحيلة

(28) المجموعة السابقة ، 2 : 166 .

(29) انظر أعلاه ، ص 4 .

(30) رسائل هارون ، 2 : 166 .

(31) المجموعة السابقة ، 2 : 171 - 175 .

والشَّركَ للمتربطين (32) ليقترحموا في انشوطتها ؛ فإذا شاهدتها المشاهد رامت
باللحظ وداعبته بالتبسُّم وغازلته في أشعار الغناء ولهجت باقتراحاته ونشطت
للشُّرب عند شربه وأظهرت الشوق إلى طول مكثه والصَّبابة لسرعة عودته
والحُزن لفراقه ؛ فإذا أُجِسَّت بأن سحرها قد نفذ فيه وأنه قد تعقّل في الشَّرك
تزيّدت فيما كانت قد شرعت فيه وأوهمته أن الذي بها أكثر ممّا به منها ، ثم
كاتبته تشكو إليه هواه وتُقسم له أنّها مدّت الدواة بدمعها وبَلَّت السِّحاءة بريقها
وأنه شَجَبها (33) وشَجَّوها في فكرتها وضميرها في ليلها ونهارها ، وأنها لا
تريد سواه ولا تُؤثر أحدًا على هواه ولا تنوي انحرافًا عنه ولا تريده لئلا بل
لنفسه ، ثم جعلت الكتاب في سُدُس طومار وختمته بزعفران وشدّته بقطعة
زير وأظهرت ستره (34) على مواليتها ليكون المغرور أوثق بها وألحّت في
اقتضاء جوابه ؛ فإن أُجيبَت عنه ادّعت أنّها قد صيرت الجواب سُلوتها وأقامت
الكتاب مقام رؤيته [. . .] ثم تجنّت عليه الذنوب وتغايرت على أهله وحمته
النظر إلى صواحباتها وسقته أنصاف أقداحها وجمّشته بعضوض تفأحها
وتحيّة (35) من ريجانها وزودته عند انصرافه خُصلةً من شعرها وقطعة من
مِرطها وشظيّة من مضراها وأهدت إليه في النيروز تَكَّة وسكِّرا وفي المهرجان
خاتمًا وتفأحة ونقشت على خاتمها اسمه وأبدت عند العثرة اسمه [. . .] ثم
أخبرته أنّها لا تنام شوقًا إليه ولا تتهنّأ بالطعام وجدًا به ولا تملّ ، إذا غاب ،
الدموع فيه ولا ذكرته إلّا تنغصت (36) ولا هتفت باسمه إلّا ارتاعت وأنّها قد
جمعت قنيّة من دموعها من البكاء عليه [. . .] وربما قادها التمويه (37)

(32) طبعة Beeston لرسالة القيان : للمتربطين .

(33) بستون : شجنها .

(34) بستون : عن .

(35) بستون : وبجبة .

(36) بستون : تنغت .

(37) بستون : هذا التمويه .

إلى التصحيح وربما شاركت صاحبها في البلوى حتى تأتي إلى بيته فتمكّنه من القُبلة فما فوقها وتُفرّشهُ نفسها إن استحلّ ذلك منها [. . .] . وأكثر أمرها قلة المناصحة واستعمال الغدر والحيلة في استنطاف ما يحويه المربوط والانتقال عنه ؛ وربما اجتمع عندها من مبوبيتها ثلاثة أو أربعة على أنّهم يتحامون (38) من الاجتماع ويتغايرون عند الالتقاء ؛ فتبكي لواحد بعين وتضحك للآخر بالأخرى وتغمز هذا بذاك وتُعطي واحداً سرّها والآخر علانيّتها وتوهمه (40) أنّها له دون الآخر وأنّ الذي تُظهر خلاف ضميرها ؛ وتكتب اليهم (41) عند الانصراف كتباً على نسخة واحدة تذكر لكل واحد منهم تبرُّمها بالباقيين وحرمتها على الخلوة به دونهم .

« فلو لم يكن لإبليس شركٌ يقتل به ولا علّم يدعو إليه ولا فتنة يستهوي بها إلاّ القيان لكفاه ؛ وليس هذا بذمّ لهن ولكنّه من فرط المدح وقد جاء في الأثر : خير نسائكم السواحر الخلّابات (42) » .

لم أتمالك من قراءة هذه الصفحة البارة المبنى والمعنى لأنّي ألتذّبها وأشعر بلذّة متجدّدة كلّما أقرأها ؛ فلو لم يكن أبو عثمان كتب غير هذا النصّ لكفى على دقّة عيانه شاهداً وعلى عبقريته دليلاً ولتخليده سبباً ؛ وإن أردتم أن تقيسوا طول باعه وسعة صدره فعليكم بمطالعة الفقرات التي أفردّها الوشاء لوصف القيان وذمّهن في كتابه الموسوم بـ « الموشى » .

فيبدو من كل ذلك أن الجاحظ كان من البصراء بأمر النساء وخاصة بالقيان ، ويغلب على الظنّ أنه عاشهنّ واختلف إلى دورهنّ واختبرهنّ

(38) بستون : سقطت .

(39) بستون : واحد .

(40) بستون : وتوهم .

(41) بستون : لهم .

(42) بستون : الخلّابات .

مباشرة أو بصفة غير مباشرة ، فلعل ذلك دعاه إلى تفضيل المملوكات على المَهيرات والى إثارة الإماء على الحرائر ؛ فأظن أنه لم يتزوج قط بل اقتصر على اشتراء جارية أو جوار وقد أبدى رأيه في هذا المعنى فقال (43) : « قال بعض من احتجَّ للعلَّة التي من أجلها صار أكثر الإماء أخطى عند الرجال من أكثر المَهيرات أن الرجل قبل أن يملك الأمة قد تأمل كل شيء منها وعرفه ما خلا حُطوة الخلوة ، فأقبل (44) على ابتاعها بعد وقوعها بالموافقة ، والحرَّة إنما يُستشار في جمالها النساء ، والنساء لا يُبصرن من جمال النساء وحاجات الرجال وموافقتهم قليلاً ولا كثيراً ، والرجال بالنساء أبصر ؛ وإنما تعرف المرأة من المرأة ظاهر الصفة ؛ وأما الخصائص التي تقع بموافقة الرجال ، فإنها لا تعرف ذلك . وقد تُحسِّن المرأة أن تقول : « كأن أنفها سيف (45) » وكان عينها عين غزال » إلى آخر الوصف التقليدي .

يجدر بنا أن نفترض أنه أراد بالخصائص التي تقع بموافقة الرجال الخصائص الأخلاقية ولكنه أمسك عن ذكرها وتعدادها ؛ فبيد أنه عدَّد بشيء من التهكم صفات القيان في جُمْلٍ متتابعة وفقرات متواصلة ختمها بالمدح المفرط ، لم يُفرد لأخلاق عامة النساء نصاً متماسك الأجزاء بل لُحَّح إلى بعضها هنا وهناك ولا سيما في فصل الخصيان كأنه وجد بين الجنسين مشابهة تسترعي الانتباه ؛ فمن ذلك أنه شاهد أن النساء (46) يعرض لهن العَبَث واللعب بالطير وما أشبه ذلك وسُرعة الغضب والرضا وحبَّ النيمة وضيق الصدر بما أودعن من السرِّ والبصر بالرفع والوضع والكسُّ والرَّش والطرح والبسط والصبر على الخدمة وإثارة المُخْنَش (47) أي الشراب السريع الإسكار وحبَّ

(43) رسائل السندوبي ، 24 ؛ رسائل هارون ، 3 : 157 .

(44) رسائل هارون : فاقدم .

(45) رسائل هارون : السيف .

(46) الحيوان ، 1 : 135 .

(47) الكتاب المذكور ، 1 : 158 .

الصِّرف من المدام ، وتقيل أفواه السنابير (48) والإعجاب (49) بصوت قصع القمل على الأظفار .

وبما أنني أشرت إلى الخصيان جاز أن أتعرض هنا للمسائل الجنسية التي يتناولها الجاحظ في الفصل المذكور بشكل لا يبلغ من الفُحش ما تبلغه « مفاخرة الجوارى والغلمان » والكتب الخاصة بهذه الأمور التي قد يَزْبِثُ شعرُ القراء مما تتضمنه من التفاصيل البذيئة .

فلقد علّمني الجاحظ (50) أن الخصيَّ يقدر على اتِّخاذ الجوارى وأنه يجتمع فيه أمانة المرأة لأنه مأمون الإلقاء ؛ « فتقيم المرأة معه وهي آمنة العار الأكبر فهذا أشدُّ لتوفير لذتها وشهوتها » ؛ وعلاوة على ذلك فإنها تحتقر الخصيان ولذلك تذهب من قلبها الهيبة « وتعظيمُ البعول والتصنعُ لذوي الأقدار باجتلاب الحياء وتكُلْفُ الحَجَل » ؛ تدلُّ هذه الملاحظات على أنه اهتمَّ بزاوية سرّية من حساسية النساء قلما يذكرها الرجال في نصوص جدّية ؛ وقال أيضا (51) : « المرأة سليمة الدين والعرض والقلب ما لم تهجس في صدرها الخواطر ولم تنوِّهم حالات اللذة وتحرك الشهوة ؛ فأما إذا وقع ذلك فعزمها أضعف العزم وعزمها على ركوب الهوى أقوى العزم » ؛ وتنقسم عنده أحوال النساء الداعية إلى ارتكاب الذنوب والمعاصي إلى ثلاثة أقسام : « إما امرأة قد مات زوجها فتحرّك (52) طباعها خطراً بأمانتها وعفافها ؛ والمغيبّة في مثل هذا المعنى ؛ والثالثة امرأة قد طال لبثها مع زوجها فقد ذهب الاستطراف وماتت الشهوة ؛ وإذا رأت ذلك تحرّك منها كلُّ ساكن وذكّرت ما كانت عنه

(48) الكتاب المذكور ، 5 : 337 .

(49) الكتاب المذكور ، 5 : 353 .

(50) الحيوان ، 1 : 166 - 167 .

(51) الكتاب المذكور ، 3 : 290 - 291 .

(52) كذا ولعل الصواب : فتحرك .

بمندوحة» ؛ ثم تشترك الأفكار في خاطر الجاحظ ، فينتقل إلى الإشارة على أهل الغريبات الأبيكار ، بأن يأخذوهن بالقراءة في المصحف ويحتالوا لهنَّ « حتى يصرن إلى حال التشيخ (أي التخلُّق بأخلاق الشيخوخة) والجُبْن والكزازة (أي البخل) أَحَوَجَ ، وحتى لا يسمعن من أحاديث الباه والغزل قليلاً ولا كثيراً » ؛ وهناك شيء من التناقض بين الرأي السابق وما ورد في موطن آخر (53) من القول بأنه « لا تزال الجارية من لدن إدراكها وبلوغها وحركة شهوتها على شبيه بمقدار واحد من ضَعْف الإرادة وكذلك عامَّتْهُنَّ ؛ فإذا اكتهلن وبلغت المرأة حَدَّ النِّصْف فعند ذلك يقوى عليها سلطان الشهوة والحِرص على الباه ، فإنما تهيج الكهلة عند سكون هيج الكهل وعند إدبار شهوته وكلال حدّه » .

ففي كلِّ ذلك نظر كما يقول الفقهاء ؛ ومما يثير اهتمام مَنْ ينصر دعوة النساء في وقتنا الحاضر قضيَّة الحِفَاض ؛ فلم يخلُ الجاحظ من أن طرق هذا الباب وعبر فيه عن رأيٍ متوسِّط معتدل ؛ فبعد أن قال (54) إن الختان راجع في النساء والرجال إلى عهد ابراهيم وهاجر زعم أن « البظراء تجد من اللذة ما لا تجده المختونة ؛ فإن كانت مُسْتَأْصَلَةً مستوعبة كان على قدر ذلك ؛ وأصل ختان النساء لم يُحاول به الحُسن دون التماس نقصان الشهوة فيكون العفاف عليهن مقصوراً » ؛ ثم روى خبراً عن قاضٍ « أحصى في قرية النساء المختونات والمُعَبَّرات فوجد أكثر العفائف مستوعبات وأكثر الفواجر معَبَّرات » ؛ ولما لم يزل يميل إلى الاعتدال في كلِّ شيء أثر الإشمام على الاستيعاب معتمداً على حديث الرسول حيث قال للخاتنة : « يا أُمَّ عَطِيَّة أَسْمِيهِ وَلَا تَنْهَكِيهِ » ففسَّره بقوله : « أراد أن ينقص من شهوتها بقدر ما يردّها

(53) الحيوان ، 3 : 533 - 534 .

(54) الحيوان ، 7 : 27 .

إلى الاعتدال ، فإن شهوتها إذا قلت ذهب التمتع ونقص حب الأزواج ، وحب الزوج قيد دون الفجور » ؛ رغماً عن تحفظ أبي عثمان وعدم تطرفه في هذا الباب لا يجوز لمن يحتاج للخفاض ويستحسنه أن يدلي برأيه لكي يحافظ على عادة شنيعة مضرّة أشد الإضرار .

وهناك مسألة أخرى لها من الأهمية في نظر معاصرينا ما لا يستهان به بالرغم مما نشاهده من التقدم في هذا الميدان ، ألا وهي قضية الحجاب والسفور ؛ فللجاحظ كتاب سماه « الحجاب » وإنما تصدّى فيه لاحتجاب الولاية والأمراء فحسب ، غير أنه تناول هذا الموضوع في كتاب « القيان » (55) وأتى بحجج قاطعة على حجاب النساء قائلاً : « لم يزل الرجال يتحدثون مع النساء في الجاهلية والإسلام حتى ضرب الحجاب عن أزواج النبي صلعم خاصة » ؛ « ثم كانت الشرائف من النساء يقعدن للرجال للحديث ولم يكن النظر من بعضهم إلى بعض عاراً في الجاهلية ولا حراماً في الإسلام » ؛ « والدليل (56) على أن النظر إلى النساء كلهن ليس بحرام أن المرأة المعنسة تبرّز للرجال فلا تحتشم من ذلك ، فلو كان حراماً وهي شابة لم يحلّ إذا غنست » ؛ ودليل آخر (57) « أن النساء إلى اليوم من بنات الخلفاء وأمّهاتهن فمن دونهن يطفن بالبيت مكشّفات الوجوه ، ونحو ذلك لا يكمل الحج إلا به » .

يحلّ إذا السفور ولا يحرم اختلاط النساء بالرجال في الحياة الاجتماعية فضلاً عن الحياة العائلية ولكني لم أجد في مؤلفاته ممّا يدلّ على أن أعضاء العائلة كانوا يجتمعون مثلاً لتناول الطعام إلا نادرة (58) جاء فيها أن رجلاً له امرأة

(55) رسائل هارون ، 2 : 147 - 148 .

(56) رسائل هارون ، 2 : 157 .

(57) المرجع السابق ، 2 : 148 .

(58) الحيوان ، 2 : 357 .

وابنتان أنزل أعرابياً في بيته فجلسوا جميعاً وقَدَّمت المرأة دجاجة مشويةً فجعل الضيف يقسمها بينهم قَسَمًا مختلفة مَكْتَنَةً كُلُّ قِسْمَةٍ منها من أخذ النصيب الأوفر ؛ فيستتج من ذلك أن الناس المذكورين كانوا يأكلون معاً وأن العامة لا تفرق بين الرجال والنساء وربما تُجلس الضيوف على موائدِها ، غير أن النادرة المستند إليها لاستخراج هذه النتيجة موجودة في الفلكلور الكوني ولعلها دخيلة فلا يسوغ الإدلاء بها .

وبما أنني لمحت الى الحياة العائلية ينبغي أن أعود إلى كتاب أبي عثمان في « فصل ما بين الرجال والنساء » الذي وعد أن يذكر فيه نصيب المرأة والرجل في الولد ؛ فيظهر أن قوله في هذا المعنى سقط من الأصل ، إلا أنه أشار عدّة مرّات إلى نتاج الأجناس المتباعدة (59) وله ملاحظة لا تخلو من أهمية حيث يقول (60) : « اعلم أن لا يكون الحظّ إلّا في نتاج شكلين متباينين فالتقاءهُما هو الإكسير المؤدّي إلى الخلاص وهو أن تُزَاج بين هنديةٍ وخُراساني فإنها لا تلد إلّا الذهب الإبريز » .

ووعد أيضاً في تعريف كتاب « فصل ما بين الرجال والنساء » أن يتساءل عن « العمل الذي هو بالنساء أليق » « والصناعة التي هن فيها أبلغ » ؛ فمن سوء الحظّ لقد ضاع هذا القسم من الكتاب - إن لم يهمله تماماً - ومن المحتمل أنه ذكر الأعمال التي تقوم بها المرأة في منزلها والمهن التي تمارسها بعضهن كالقوابل والحواضن والنوائح وغيرهن ، إلّا أن « الصناعة » التي يراها ملائمة للنساء هي الغناء (61) : « كم بين أن تسمع (62) الغناء من فم تشتهي أن تقبله وبين أن تسمعه من فم تشتهي أن تصرف وجهك عنه ! وعلى أن الرجال

(59) الكتاب المذكور ، 1 : 104 - 1576 .

(60) الكتاب المذكور ، 1 : 148 .

(61) رسائل السنوبي ، 269 ، رسائل هارون ، 3 : 144 - 145 .

(62) رسائل هارون : يسمع .

دُخلاء على النساء في الغناء كما رأينا رجالاً ينوحون فصاروا دخلاء على النوائح ؛ وبعد فأثما أحسن وأملح وأشهى وأغنج : أن يغنيك فحلّ ملتفّ اللحية كَثّ العارضين أو شيخ منخلع الأسنان متغضّن (63) الوجه ثم يغنيك إذا هو تغنى بشعر ورقاء بن زهير :

رأيت زهيراً تحت كلكل خالدٍ * فأقبلت أسعى كالعجول أبادرُ
أم تغنيك جارية كأنها طاقة نرجس أو كأنها ياسمينة أو كأنها خرطت من ياقوتة
أو من فِضة مجلوة بشعر عكاشة بن محصن :
من كفّ جارية كأنّ بنانها * من فِضة قد طرّفت عُناباً ؟

فأما الغناء المطرب في الشعر الغزل فإثما ذلك من حقوق النساء ، وإثما ينبغي ان تغني بأشعار الغزل والتشبيب والعشق والصبابة النساء اللواتي فيهنّ نُطقت تلك الأشعار وبهنّ شَبّب الرجال ومن أجلهنّ تكلفوا القول في التشبيب (65) .

يتضح مما تقدّم أن الجاحظ لم يستطع بالرغم من طرافته وعبقريته وحرية تفكيره أن يخالف التقاليد الثابتة والعقائد الراسخة مخالفة تامة . وإنما حاول أن يُنصف النساء فلم يرجح كفّ الميزان لأحد الجنسين إلّا بعد أن قاس العلل ووزن الحجج ، ومع ذلك لم يبلغ نتيجة حاسمة بل عبّر عن آرائه الصائبة بتحفظ واحتياط فقال (66) : « ولسنا نقول إن النساء فوق الرجال أو دونهم بطبقة أو طبقتين أو بأكثر ولكنّا رأينا ناساً يزدرون (67) عليهنّ أشدّ الزراية ويحتقرونهنّ أشدّ الاحتقار ويبحسونهنّ أكثر حقوقهنّ » ، وذلك هو السبب

(63) رسائل هارون : مغضن .

(64) رسائل هارون : بالنساء .

(65) رسائل هارون : النسب .

(66) رسائل السندوبي ، 72 ؛ رسائل هارون ، 3 : 151 .

(67) رسائل هارون : يزرون .

الذي من أجله اعتزم على تأليف الكتاب الذي اقتبست منه كثيرا من النقول السابقة ولكنه مع حبه للنساء بل للمرأة (بحرف التاج) بصفة عامة ونزعتيه الواضحة إلى الإنصاف والاعتدال لا يمكنه أن يسوّي بين الرجال والنساء تسوية كاملة وإنما يستنتج من ملاحظاته (68) « أن فضل الرجل على المرأة في جملة القول في الرجال والنساء أكثر وأظهر » ويضيف إلى حكمه النهائي كلمة فيها عبرة لمن يعتبر : « ليس ينبغي لمن عظم حقوق الآباء أن يصغر حقوق الأمهات وكذلك الإخوة والأخوات والبنون والبَنَات ، وأنا وإن كنت أرى حقّ هذا أعظم فإنّ هذه أرحم » .

شارل بلّا